وداء الشهداء *

عروس الجنة ☆

للاستاذ عمر عودة الخطيب

— ١ —

« في تاريخنا الزاهر دماء زكية خالدة خطت آية المجد الكبرى ورسمت حدود عالم إسلامي واسع » ع

جلس «أبو عامر بن سيف» ومن حوله فئة من شباب «الأوس» قد فلظت أكبادهم، وقست قلوبهم، ورسمت المعارك التي خاضوها مع أعدائهم آثارها في وجوههم الكالحة الربدة. جلسوا مطرقين يسودهم صمت ثائر قاتل ... وكانت عيونهم ترمق زعيمهم « أبا عامر » بنظرات ملؤها الإكبار والإجلال، ولكنهم لفرط مهابتهم له، وخضوعهم لسطوته، لم يجدوا من أنفسهم الجرأة في النظر إليه، والتبسط في الحديث معه، بيد أنهم يعلمون أن من واجبهم أن تكون أيديهم دائما على مقابض سيوفهم، ليسلوها من أغمادها إذا ما بدرت من زعيمهم أي إشارة لهم

وكانت المدينة — إذ ذاك — تضج بالتكبير، ويتعالى في جنباتها هتاف يشق عنان السماء من هذه الموا كب الفرحة التي زحفت إلى ظاهر المدينة وتسلقت أعالي النخيل، ترمق الأفق البعيد وترنو إلى قافلة النور والإيمان ... التي خرجت من مكة مهاجرة في سبيل الله

وتناهت إلى أسماع أبي عامر وأتباعه في مجلسهم ذاك، أصوات ناعمة رقيقة كأنها تسبيح الملائكة في الملأ الأعلى ... فوقف « أبو عامر » يستطلع نبأ هذه الأصوات ووقف من حوله فتيانه ينظرون، فرأوا صبايا يثرب بأيديهم الدفوف يسرن في موكب حافل جذلات فردات ... وهن يرتلن نشيدهن الساحر :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وجلس أبو عامر وقد زادته هذه الموا كب الطربة حنقا وحقدا، ونظر إلى أتباعه وفي صدره مرجل يغلي، ونار تشتعل ... وقال : « لقد جاء محمد إذاً ! » وصمت قليلا شأن من يفكر في أمر خطير ثم قال : « واللات والعزى لن نتركه يجد في يثرب الراحة والاستقرار ... » وأمن أتباعه على كلامه، وسلوا سيوفهم ورفعوها في الهواء، إيذانا بإعلان الحرب على محمد ... وانفرط عقدهم، وانصرفوا إلى بيوتهم ... وقد بيتوا أمرا

— ٢ —

دخل « حنظلة بن أبي عامر » وكان شابا رقيق الشباب، طري العود، فض الإهاب، فألقى أباه غارقاً في تأمله، يصعد بين فترة وأخرى زفرات حرى تنم عما يعتلج في قلب صاحبها من هم وكمد ... وكانت أساريره تفضح ما في نفسه من حقد وثورة ... فوقف حنظلة غير بعيد منه وألقى عليه تحية المساء، فلم يشعر به ولم يلتفت إليه.. ثم ضرب بقبضته على فخذه وصاح كالمحموم : « كلا ! كلا ! لن تكون أرض يثرب لمحمد موطئاً سهلا ! ! » ورفع رأسه فرأى ابنه حنظلة واقفاً، فنظر إليه نظرات صارمة كأنها جمرات الجحيم ثم قال : —

— أهذا أنت يا حنظلة ! أين كنت وقد انقض السامر وغاب القمر !

— كنت في دار أبي أيوب الأنصاري أستقبل محمداً وأحييه. لطالما تاقت نفسي إليه، وحنت روحي إلى لقائه.. كنت قبل أن أراه كسالك البيداء ... تحرقه شمسها، ويلفحه غبارها، ويضمره ظلامها، وتعييه رمالها ... فلما أبصرته رأيت النور الإلهي بشراً سويا ؛ تحف به ملائكة الله، وترعاه عناية السماء .. وحين مددت يدي إليه وصافحته — روحي فداه له — ذهلت عن نفسي، ورأيتني طائراً يرفرف بجناحيه في رياض الخلد ...

* قدمت لقراء الرسالة القراء منذ عامين سلفا طائفة صغيرة عطرة من دماء هؤلاء الشهداء الأبرار.. ثم جاءت بعض مناحب الحياة تجف القلم في يدي ويئس الأمل في قلبي .. الأمل في أن أبعث هذه الدماء حية تنبض بالقوة .. وتفيض بالإيمان ... فلما انجلت الغمرة وانكفأت الغمة — عدت فألفيت بقلبي وقلمي في فردوس هؤلاء الشهداء. يبتسمان منهم ويبتسمان منهم ويتحدثان عنهم . .

فأويت إلى ظل محمد .. ونسيت متاعب الصحراء

سمع أبو عامر كلام ابنه ؛ فقام كمن يتخبطه الشيطان من المس ثم قال :

— ويل لك يا حنظلة ! أو قد صبأت ! أكفرت بآلهتنا ؟ هل سحرك محمد فنسيتني وعصيتني ؟ كيف ألقى بعد اليوم فتيان الأوس وقد جافى العار ؟ !

— لقد آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، منذ بعثه الله وكفرت بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني من الحق شيئاً ... لقد طهرني رسالة السماء من الجاهلية .. وأخرجني محمد من الظلمات إلى النور ... وسكب في روحي إيمانا يشع بالخير والنقاء .. وعلمني أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. وأن المسلم في الدنيا خليفة الله في الأرض .. ينشر رسالته ويعلي كلمته ... وأنا أدعوك يا أبت إلى نبذ عبادة الأصنام ، والإيمان بالله الواحد القهار .. بارئنا وقيوم السماء والأرض .. وسكت أبو عامر قليلا ثم اصطكت أسنانه ، وتلاحقت زفراته وقال :

— ماذا أرى ! ماذا أسمع ؟ رحماك أيتها الآلهة ! اغرب عن وجهي يا حنظلة .. فلا أراك بعد اليوم ، وليس لي منذ الساعة بيثرب مقام

ثم لبس رداءه ، وحمل سيفه ، وامتطى راحلته ، وصفق الباب وراءه صفقة عنيفة وانطلق (١)

— ٣ —

ومرت سنتان ونيف .. حتى كانت تلك الليلة التي استوى فيها القمر بدرا ، وملأ الكون نورا .. وقد انصرف حنظلة من المسجد فرحا يرقص قلبه طربا ، وبعد أن بارك رسول الله زواجه بفتاة من الأنصار .. سار في أزقة المدينة ، يحيط به أترابه من الفتيان والبشر يملأ وجوههم ؛ والسعادة ترفرف عليهم .. صاروا يزفون حنظلة إلى فتاته في عرس لم تشهد المدينة له مثيلا .. فكان الفتيان يهتفون ، والنساء يزغردن ، وحلت الفرحة في كل بيت .. لأن حنظلة حبيب إلى كل قلب ، لما حباه الله من رقة في الشمائل ، وكرم في المعشر ، ونبل في الخلق .. وإذا كانت الأصنام قد حرمته في مثل هذا اليوم حنان الأب وفرحته ، فقد حبـــاه الإسلام حنان كل أب في المدينة ، وعطف كل أخ .. فلا عليه أن يهنأ ويسعد وقد فدا الإسلام له أبا وأما

زف حنظلة إلى عروسه ، وكانت فتاة صنعتها رسالة محمد ، فأقبلت عليه تتضوع في أثوابها ، فخف إليها يستقبلها ، فانتشر ثغرها الحلو عن ابتسامة عذبة أسرت قلبه ، وملكت عليه لبه ؛ لأنها ابتسامتها الأولى لرجل .. فما عرفتها المدينة إلا فتاة عفة نقية ، كالزنبقة المتفتحة تنشر الشذى من خلف أوراقها البيض الندية

ونام حنظلة ليلته تلك هانئا ناعم البال .. ورأى نفسه مع بعض إخوانه في روضة جميلة ضاحكة .. موشاة بالزهر ، مضمخة بالعطر ، تجري من تحتها الأنهار .. وتخطر في رودها الحسان ، وهن يوقعن أعذب الألحان .. وأفاق من غفوته وقص على عروسه حلمه الجميل ، فابتسمت له وقالت : سيتحقق حلمك ياحبيبي .. وكادت يده تلامس يدها حين سمع منادي رسول الله ينادي بالخروج إلى العدو في أحد ؛ فنظر إليها ونظرت إليه ، ثم وضع ثيابه عليه وحمل سيفه ودرعها .. فانحدرت من مقلتيها دمعتان .. ولم تفارقها ابتسامتها

— ٤ —

خرج من صفوف المشركين فارس على جواد مطهم ، وبيده سيف ثقيل يهزه هزات عنيفة ، وينادي بصوت جهير .. كأنما يريد أن يجتاز به السهوب ، ويزلزل القلوب .. ليصل إلى يثرب .. بلدته التي فارقها منذ أمد بعيد ، بعد أن قطع على نفسه عهدا أشهد عليه اللات والعزى ، ألا يترك محمداً يجد في يثرب الراحة والاستقرار

نادى في المعركة : « يا معشر الأوس ! أنا أبو عامر » فإذا بأصوات المؤمنين القوية المرعدة تصك مسمعه بقوة وعنف : « لا مرحبا بك » وسمع حنظلة صوت أبيه .. ذلك المشرك الذي يحارب الله ورسوله ، ويكيد للإسلام ، فلم يسمعه صوت أب وإنما سمعه صوت مشرك يتحدى المسلمين ، فأخذته عزة الإسلام فهب يستأذن رسول الله في قتل أبيه فنهاه رسول الله عن ذلك .. فرجع كئيبا ينتظر

ولما انكشف المشركون رأى حنظلة أبا سفيان قائد جيش

(١) خرج من المدينة ومعه خمسة عشر رجلا من الأوس ولحق بمكة